فلسفة البراجماتزم

بقلم الدكتور
أحمد عبد الرحيم السايح

بدأ الفكر الإنسانى فى العصر الحديث بتمجيد العقل ، حتى أعلى كلمته فوق كل كلمة ، وجعل منه الحكم الأخير ، فيما يوجد وما لا يوجد ، وفيما يصدق وما يكذب .

ذلك الحال ، كان عند « ديكارت » و« مالبرانش » و« سبينوزا » و« ليبنتز » ولكن الفلاسفة الحسيين « لوك » و« بار كلى » و « هيوم » واضرابهم . هاجموا المعانى والمبادىء العقلية ، هجوما عنيفا .

فظن الفيلسوف « كانت » أنه يستطيع أن ينقذها ، إذا اعتبرها مجرد صيغ لتنظيم التجربة وجاء مذهب التطور ، فرأى رجاله : بأنه يقتضى القول بأن الحس والعقل وظيفتان من وظائف الحياة ، وأن المعرفة آلة العمل ، وأن رأى « كانت » يلائمهم تمام الملاءمة .

ولقد أدى هذا الجمع بين نقد « كانت » ونظرية « التطور » إلى طائفة من المذاهب الحيوية أو العملية ، غلبت فكرة الحياة على فكرة العلم ، فافترقت عن « كانت » وعن « سبنسر » جميعاً .

افترقت عن « كانت » فى أن تنظيم التجربة ليس الغرض منه العلم بل المنفعة ، وأن المعانى والمبادىء ليست كلية ضرورية ، وإنما هى عبارة عن حاجات الكائن الحى ومطالبه فهو يستعمل الصيغ العقلية لحفظ وجوده واستكماله .

ويستطيع أن يستبدل بها غيرها . دون أن يفوته النجاح العملى ، كما يستبدل الصانع آلة بأخرى. أو جهازا بآخر، ويؤدى مع ذلك نفس العمل أو يحصل على نفس النتيجة .

وافترقت هذه المذاهب الحيوية عن « سبنسر » فى القول : بأن الكائن الحى هو الذى يكون العالم وعلى حسب مطالبه. بينما (هربرت سبنسر) يرى أن هذه المطالب نتيجة تأثير العالم فى الكائن الحى .

فالعقل فى المذاهب العملية . غائى فى جوهره ، يتجه إلى العمل ، لا إلى النظر . والعقل والمعانى والمبادىء ، فروض ومحاولات يكون بها العالم لفائدته .

فالمذاهب العملية: لا تحفل إذن بتبرير العلم والميتافيزيقيا تبريرا نظريا ولا تغار على مبادىء العلم غيرة « كانت » ، ولكنها تستمسك مثل « كانت » بالمعانى الميتافيزيقية ، وترمى مثله إلى تحقيقها بالفعل ، وإقامة الإيمان بها على منفعتها العملية .

فالمذاهب العملية ، تمثل العقل العملى ، محولا إلى قوة فاعلية ، وهذا الاتجاه المعاصر من الفلسفة والذى يتمثل فى الفلسفة العملية . نشأ فى أمريكا فى مطلع القرن العشرين على يد ثلاثة من أعلام المفكرين وهم :

«تشارلز ندرز بيرس» و«وليم جيمز» و«جون ديوى» .

إتفق هؤلاء الأعلام فى فلسفتهم على توجيه العقل إلى العمل ، دون دون النظر ، واعتبار المعرفة أداة العمل المنتج . فانصرف التفكير عن المبادىء والأوليات إلى النتائج والغايات ، وأصبح صدق الفكرة معناه : التحقق من منفعتها بالتجربة .

هذه الفلسفة العملية « البراجماتزم » تضع العمل مبدأ مطلقا. وكلمة «البراجماتزم» وان كانت قديمة ومستعملة بمعان مختلفة . إلا أن المعنى المعروف

لها الآن ورد فى مقال مشهور للفيلسوف الأمريكى «بيرس ١٨٣٩ — ١٩١٤» ونشر المقال فى يناير ١٨٧٨م تحت عنوان «كيف نوضح أفكارنا» ذهب فيه إلى أن توضيح معنى الفكرة يكون بالقياس إلى آثارها العملية فى حياة الإنسان، وأعتبر الكلمات والعبارات التى تتألف منها الفكرة خططا للعمل، وكل فكرة لا تنتهى إلى سلوك عملى فى دنيا الواقع باطلة، أو غير ذات معنى يعول عليه.

واعتبر الفيلسوف «بيرس» الاعتقاد من نوع الأفكار، هو حق متى دل على سلوك عملى، وإلا فكان خلوا من كل دلالة.

ويذكر قاعدة للتحقق من دلالة المعانى التى نستخدمها فيقول: «أن تصورنا لموضوع «ما» هو تصورنا لما قد ينتج عن هذا الموضوع من آثار عملية لا أكثر.

وهذا يعنى أن علاقة الحقيقة أو معيارها: العمل المنتج، لا الحكم العقلى، وأن العمل مبدأ مطلق، بحيث يلزم من ذلك أنه حر كل الحرية، وأن لا شىء يعترضه. سواء العمل المادى والخلق والعقلى أو التصور. فيلزم من ذلك أن العالم مرن نستطيع التأثير فيه وتشكليه. وأن تصوراتنا فروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل.

وتمنى «بيرس» لو أمكن إقامة مجتمع معملى يقوم على نفس المنهج الذى يصطنعه العلم فى معمله. وعندئذ يتيسر الوصول إلى الحق أو الصواب، الذى لا يقبل جدلا ولا يحتمل نزاعا.

وفلسفة «البراجماتزم» فى رأى «بيرس» تعبر عن الذهن المعملى الذى وضعه موضع التناقض الحاد مع «الذهن الأكاديمى» الذى تتميز به الفلسفة التقليدية.

وقد أكد « بيرس » أهمية الأفكار العامة التى فسر معناها بوصفها : « عادات الحركة » الموضوعة موضع التجربة .

وذلك فى مواجهة ومعارضة ما يقول به المذهب الوضعى ، والمذهب الحسى ، فى أوربا . وقد فسر المذهب الحسى معنى الفكرة ، فى إطار ما توحى به الصور أو الأحاسيس . غير أن « بيرس » انتقد هذا المفهوم باعتباره يؤدى إلى الذاتية والأسمية . واحتج « بيرس » بأن الصور والأحاسيس إنما هى أشياء خاصة وشخصية . وهى بالتالى تجعل من عملية التخاطب أو التوصل ضربا من الألغاز . ومن ثم فقد كان يرى أن معنى لفظ « إنسان » ليس عبارة عن مجموعة مركبة من البيانات التى تتوصل إليها الحواس ، وإنما هو عدد من الاستجابات الموضوعة ، وبمعنى آخر فإن السلوك الموضوعى لا الحدس ، هو السبيل الوحيد للتوصيل إلى المعنى مهما كانت درجة التعقيد ، التى تبدو فى لفظ معين ، أو تعبير بذاته فإن معناه المعقول : « إنما يكمن فحسب فى علاقته المفهومة بطريقة توجيه الحياة » .

ورغم أن « بيرس » لم يكن على الدوام مخلصا لفلسفة « البراجماتزم » إلا أنه أنار الطريق أمام التطور المقبل لتلك الفلسفة ، عندما أكد أن أساليب الوعى الانتقادى ، والعلم التجريبى إنما توفر أفضل الطرق للوصول إلى المعرفة الحقة .

وقد استمرت أفكار « بيرس » عن طريق معاصره الذى فاقه شهرة ، وهو : الفيلسوف : « وليم جيمز » ١٨٤٢ — ١٩١٠م أكبر أعلام الفلسفة العملية .

وهذا الفيلسوف اعتبر الفكرة الصادقة هى التى تؤدى إلى النجاح فى الحياة ، والمعتقد الصحيح هو الذى ينتهى إلى تحقيق الأغراض فى دنيانا الحاضرة ، ومن ثم فإن الأفكار والمعتقدات لا تطلب لذاتها ، وإنما تلتمس كوسائل لتحقيق أغراض فى دنيا الواقع .

وعلامة الحق أن يكون الإعتقاد فيه خيراً من إنكاره فى مجال الحياة العملية . فالحق ليس مجرد صفة عينية ، تقوم فى طبيعة الفكرة أو المعتقد ، كما يزعم الصوريون من الفلاسفة بل هو قابلية الفكرة لأن تكون أداة سلوك علمى فى دنيانا الحاضرة ، ومثل هذا يقال فى الأخلاق فالفعل الإنسانى فاضل متى حقق نفعاً فى حياة الإنسان .

ويقول «وليم جيمز» فى صراحة : أن التفكير هو أولا وأخيراً وداثماً من أجل العمل وتصورنا لأى شىء ندركه بالحس ، ليس فى الواقع إلا أداة نحقق بها غايةما .

ومعنى هذا ، أن الأفكار يجب أن تختبر عن طريق ماتتوقعه منها من تجارب حسية أو عن طريق نجاح رد الفعل الملائم لها ، فإن الحق ليس إلا التفكير الملائم لغايته كما أن الصواب ليس إلا الفعل الملائم فى مجال السلوك .

وقد طبق «وليم جيمز» فلسفة « البراجماتزم » تطبيقاً مثمراً للغاية فى كتابه «أصول علم النفس» فيما يتعلق بتحليل المفاهيم الأساسية مثل «الغرض» ، « الذهن » وأشار إلى مذهب الحسيين التجريبى ، والمثالية التقليدية : إنما يشتركان معاً فى الإيمان بمقدمات عامة . لاتستطيع الصمود ، أمام التحليل العلمى ، أو أمام النتائج التى توصل إليها علم الحياة ، وعلم النفس .

فقد عجز الحسيون عن إيجاد أى مفاهيم ذهنية تتمشى مع كلتى «الغرض» ، «الذهن» ولذلك فقد أتى المثاليون بشىء بعيد عن مجال التجربة . لإسباغ المعنى على تيار الصور فى مجرى الوعى .

أما «وليم جيمز» فقد فسر « الغرض » والذهن . بوصفهما نمطين من أنماط السلوك التى يمارسها الجهاز الحى بوجه عام ، فذكاء شخص «ما» أو هدفه

يمكن تبينه من خلال استجاباته الموضوعيـــة للموقف الذى يجد نفسه فيه .

و كتاب « وليم جيمز » « أصول علم النفس » يقال عنه : كان دليلا على ما لوليم جيمز من دقة التحليل وطلاوة الأسلوب والعمق والتأصيل. وهو كتاب ضخم صدر سنة ١٨٩١ م فى مجلدين كبيرين . وكان هذا الكتاب فتحاً جديداً فى ميدان الدراسات النفسانية ، بسط فيه « وليم جيمز » وجهة نظره فى دراسة علم النفس دراسة مستندة إلى التجربة ومبنية على المعارف البيولوجية . ووجه فيه العناية فى ميدان علم النفس إلى الوظائف . وتناول التفكير والمعرفة باعتبارهما أدوات يستعين بها الإنسان فى نضاله فى الحياة . ودافع جيمز فى دراسته تلك عن إرادة الإنسان الحرة .

وحين أتم كتابه فى علم النفس بدأت تأملاته تتجه إلى طبيعة الله ، ووجوده وخلود النفس ، وحرية الإرادة ، وقيم الحياة .

وقد امتازت دراساته فى هذا الميدان بالتجديد والعطاء والانطلاق . وذلك لأنه كان ميالا إلى التأمل العملى ، مؤثراً تعمق التجربة النفسانية ، بعيداً عن الخوض فى المناقشات الجدلية .

فحين استهل تأملاته فى الله اتجه اتجاهاً مباشراً إلى التجربة الدينية ، يستطلع فيها طبيعة الخالق ، ويمم وجهه نحو البحث النفسانى ، ليعرف معنى الخلود بعد الموت ، وقصد ميادين الاعتقاد والعمل ، ليثبت حرية الإرادة . وليدحض النزعة الحتمية . كان جيمز باحثاً منقباً فى هذه الميادين كلها ، يسير فى مسالك وعرة .

ترامى له أن البقاء بعد الموت فى حاجة إلى الدليل المقنع . ولكن وجود

الله تسجله التجربة الدينية . فالله هو المنقذ فى الملمات ، والله هو وحده الذى يفرج الأزمات .

والحرية تراخ فى إرتباط الأشياء بحيث : أن المستقبل لا يتعين تعيناً لا مفر منه بالماضى والحاضر وعلى ذلك فالحرية تنقذ التاريخ من الهبوط إلى محض تكرار سقيم .

وقد ظهرت آراء هذا الفيلسوف، فيما كتب من مقالات ، وما ألقى من محاضرات ، وجمعت فيما بعد فى مؤلفات هامة : منها «إرادة الاعتقاد ، وقد ظهر سنة ١٨٩٧ «وخلود النفس» سنة ١٨٩٨م . و«أحاديث إلى المعلمين فى علم النفس » سنة ١٨٩٩ . و « تنوع التجربة الدينية ، سنة ١٩٠٢

وكانت دراساته فى هذه الفترة تتصل من قريب ومن بعيد بهذا الجانب أو ذاك من جوانب المشكلة الدينية .

ويبرز كتاب «تنوع التجربة الدينية» إتجاه «وليم جيمز» فى التصدى للمشكلات الفلسفية الخالصة . وفى سنة ١٨٩٨ ألقى محاضرة فى جامعة « كالفورنيا» عن «التصورات العقلية والنتائج العمليـــة» وصاغ المنهج المعروف بالمنهج « البراجمى » وقد إنتفع بالقاعدة البراجمية فى دراساته للتجربة الدينية ونظر فى أفكار الصدفة والتغيير ، والتعدد ، والتنوع ، والحرية .

وأستعان بتلك القاعدة فى حملته التى شنها على المذاهب «الواحدية» التى تنظر إلى العالم على أنه كل موحد .

وفى سنة ١٩٠٦ دعى ليحاضر فى جامعة «ستانفورد» بكاليفورنيا ، وجمعت محاضراته فى كتابه « البراجمية» وهو يتضمن عرضاً واضحاً لمنهج جديد فى التفكير والعمل ، مستنداً إلى التجربة الأصلية .

والبراجمة عنده تتوق أن تدخل فى الفلسفة المنهج العملى التجريبى الذى ثبتت صحته وفاعليته فى الكثير من الميادين العلمية . وذلك بفضل حرصه على التحقق الفعلى من كل فكرة أو نظرية .

والبراجمية تعنى بتوضيح المذاهب الفلسفية وتبسيطها ، لتعود بها إلى مضامينها الواقعية ، ولكنها لاتقف منها موقف الحكم ، فالحكم النهائى يظل دائماً أمراً شخصيا .

ومن كتبه « إرادة الاعتقاد » وقد ترجمه الدكتور محمود حب الله إلى اللغة العربية سنة ١٩٤٦ م ونشره ضمن مؤلفات الجمعية المصرية الفلسفية .

ومن كتبه « تباين الخبرات الدينية » و « المذهب العملى » و « البراجماتزم » و « العالم المتعدد » و « بعض مشاكل الفلسفة » وغيرها .

وتتميز مؤلفات « وليم جيمز » بما بها من نظرية علمية ، ودقة بالغة ، ويرجع الاهتمام العظيم الذى أحرزته مؤلفاته و كتاباته ، إلى التأثير الذى قامت به الفلسفة العملية فى الفكر الحديث .

* * *

ديوى

ولقد ارتفع شأن الفلسفة العملية بفضل الأستاذ « جـــون ديوى » ١٨٥٩ — ١٩٥٢م . ويعتبر من أعظم رجال التربية فى أمريكا .

نادى بفكرة التربية الديمقراطية فى المدارس : وبدأ فلسفته بأن كان « هجلياً » فرأى مثل « هجل » : أن قلق الفكر الحديث ناشىء من التعارض بين المثل الأعلى والواقع ، أو بين الروح والطبيعة .

فأراد « ديوى » أن يحقق الوحدة الروحية خيراً مما فعل « هجل » ، وكان « ديوى » كثير التأليف .

صرح أن الفكر ليس إلا وسيلة أو ذريعـــة لخدمة الحياة . وسمى مذهب الذرائع « التربية التقدمية » .

والحق عنده هو التحقق من منفعة الفكرة بالتجربة. ولا يمكن أن يكون شيئا آخر . وفى مذهب الذرائع الذى انتهى إليـه يرى أن الحياة توافق بين الفرد وبيئته . ولهذا فإن العقل ليس أداة معرفة ، بل أداة ترقية للحياة وصواب المعتقد مرهون بأثره وبقيته المنصرفة .

وبهذا اتسع معنى « البراجماتزم » فأصبح صواب الفكرة أو المبدأ ، معناه تكيفه مع حياة الآخرين ومعتقداتهم ، وليس مع حيـــاة الفرد العملية حسب

وألح « ديوى » فى المطالبـة بتطبيق منهج البحث العملى ، على شتى مجالات التفكير ، ولاسيما مجال القيم فى الأخلاق والجمال والسياسة وغيرهم آملا أن يؤدى هذا إلى تغير القيم ، بحيث تلائم ظروف الحياة ، وتتمشى مع مقتضياتها .

والمنهج العمل عنـد « ديوى » هو الطريقة التى يصطنعها الباحث فى الخروج من نطاق الفكر إلى نطاق العمل . وبهذا أصبحت الفكرة اقتراحا لحل إشكال . فإن وفقت إلى حله ، كانت صوابا . ويعتقد « ديوى » أن الفكر فى أساسه أداة لخدمة الحياة ، والناس لا يزاولون التفكير متى جرت حياتهم لينة ناعمة ، فإذا عاق تفكيرهم عائق باشروا التفكير مضطرين .

فتفكير الناس خطة يواجهون بها المصاعب ، ومقياس صحة التفكير عند الناس يقوم فى مدى ما يحققونه من نجاح . وفى ذلك يقول : « أن كل ما يرشدنا إلى الحق فهـو حق » . ويخطىء الذين يحسبون وهما ، أن العلوم تقصد إلى المعرفة لذاتها . وأن التفكير المجرد ، مقطوع الصلة بمطالب الحياة العملية .

ولكن الواقع أن كل بحث وراء الحقيقة ليس إلا طريقة لإيجاد وسائل تخدم حياتنا العملية ومن ثم كان موضوع التفكير عند « ديوى » خطة يراد بها تحقيق فعل من الأفعال . والفيلسوف « ديوى » قد عالج كثيرا من نواحى المعرفة الإنسانيـــة فى كتاباته ومؤلفاته ، التربوية والفلسفية ، والمنطقية ، والنفسية ، والفنية .

وأهم كتبه « الديمقراطية والتربية » وقد ترجم إلى اللغة العربية وقام بترجمتـــه الدكتور متى عقراوى والأستاذ زكريا ميخائيل ونشر عام ١٩٤٦ م .

ومن كتبه كيف « نفكر » و « المنطق » و« نظرية البحث » وغير هذا كثير ومعظم مؤلفاته أصبحت معروفة فى العالم العربى ولها ثقلها فى التأثير .

وأخذ بنظرياته معظم رجال التربية فى مصر ، وذكره يتردد على السنة طلاب كليات التربية فى العالم كما أن آراءه تملأ بطون كتب التربية والفلسفة وعلم النفس .

ومن هذا العرض الموجز لأعلام الفكر — بيرس وجيمز وديوى — وفلسفتهم ... يتبين لنا أن صواب الفكر عند هؤلاء تشهد به الآثار التى تترتب عليه فى دنيا العمل .

وهذا الإتجاه اصطبغ بنزعة واقعيـة ملحوظة . لقد تعالى على صيغ العقل وأطاراته الذهنية وأتصل بدنيا العمل أوثق اتصال .

فكان بهذا ثورة على الفلسفة التقليدية . كان الفكر فى الفلسفة المثالية يسبق موضوعه . فأصبح فى الفلسفة العملية لاحق له . وكان الحق بمعزل عن ظروف الحياة ومطالبها ، فأصبح مرهونا بعلاقته بالنفع الذى يحققه

فى حياة الإنسان . وأضحى هدف التفكير قائما فى استخلاص القيمة العملية للكلمات والعبارات فى كل صورها ، واستفتاء التجربة فى أمرها .

معنى كلمة « براجماتزم » :

معظم النقاد قد فشلوا فى إدراك ما ترمى إليه هذه الفلسفة العملية عندما تتحدث عما هو « عملى » لأن ما تعنيه فلسفة « براجماتزم » بكلمة « عملى » هو أمر مشابه لما قصد إليه « مار كس » عندما انتقد « فيورباخ » لتجاهله التطبيق العملى ، فى مفهومه عن الحقيقة وفى بعض الأحيان ولسوء الحظ تستخدم كلمة عملى بنفس معنى مفيد . ومن ثم يؤكد نقاد فلسفة « البراجماتزم » وعلى الأخص « براتراندراسل » أنه طالما أن الفلاسفة البراجماتزيين يؤمنون بنظرية عملية عن الحقيقة فهم يؤمنون بالتالى . أن كل ما هو مفيد فهو حقيق . وأن كل ما كان مدرا للربح فهو حق وأن كل مايساعدنا على اكتناز المال فهو من الحقائق الراسخة .

والواقع ماترمى إليه : فلسفة « البراجماتزم » بكلمة « عملى » لا يعدو أن يدلل على النشاط والسلوك والتجارب التى لا تكون بالضرورة ذات نفع أو فائدة .

فلاسفة « البراجماتزم » يؤكدون أن كل صنوف التفكير شىء عملى ويقصدون بهذا ، أن كل تفكير أمر تجريبى . وأنه باعتباره تجريبا فان عمل المرء أن يدخل نوعا من التغير العملى فى الأشياء وأن يحدث من الوجهة الحرفية ، أمرا مافى هذا العالم وله على حد سواء ، ولا يعنى هذا أن كل فعل علم ، أو كل مفيد هو باعث على السرور .